العاقر

ذكرى الكشباطي / الجزائر

تمدّدت على سريري كسيجارة مستهلكة ألقيت على حافة الطّريق.
تكوّمت ببعضي في منتصف الفراش،عيناي المنطفئتان تحدّقان في بلوّر النّافذة الضّبابي،قطرات الندّى المنزلقة عليه تزيد قلبي وحشة، تذكرنّي بحجم الصقيع خارجا، ترتجف قّدماي، حتّى تتصّلب أصابعي....
الخزانة ملئية بالأغطية لكنّي أفضّل هذا الموت البطيء..
يكفي ما إحترقت....
كلّ الأغطية متواطئة معه،محتفظة برائحته، بعطره الباذخ, بأحلامه و أمانيه بأطفال يملئون البيت، لن يولدوا !
أفضّل أن أموت بطيء، بعيدا عن أحلامه سأموت!
يتسرّب سرب النّمل من أقدامي،يسير في كدّ و عزم نحو جمجمتي، يتغلغل في مسامي، في جلدي، يمرّ بأنفي، يعبر رأسي..
دبيبها لا يتوّقف...
صار كلّ جسمي ينمّل.
يحتك قدماي ببعضهما البعض،يتسارع النّبض، النّمل يتوغّل أكثر، وقع أقدامها أجراس تدّق داخل رأسي بإنتظام عاقر...عاقر...عاقر...عاقر!
يحتدّ الصّوت و لا يرحم ارتجاف جسدي..
صوته سرطان مدّ أضافره المعقوفة في ضعفي، في إنكساري و تشدّ على عروقي، حتّى التشنّج..
أسناني تصطكّ و الصّوت لايزال يعلو، عاقر...عاقر!
تتصلّب أطرافي و أغرق في موجة من الألم ثمّ لا أعود أذكر شيئا..
أفتح عينيّ لأجد نفسي ملقاة في القاع، لساني مجروح،متورّم كشفاهي..
نوبة صرع جديدة إذن!
لا يهمّ...
الصّرع،صديقي الجديد الذّي لابدّ أنّه قرّر مصادقتي عنوة حتّى صار يزورني كثيرا...
حاولت جاهدة أن أقوم، إستندت على مرفقي، ثم ركبتيّ، أمسكت حافّة السّرير و نهضت أخيرا من على الأرض، بعض الدّوار يلفّ رأسي..
توجّهت نحو المطبخ في عناء، أدفأت بعضا من الحليب، مددتّ عيني من النافذة إلى هذا البياض المكتسح لرؤوس الشّجر و سطوح المنازل و أوجه الطّرقات،مدينة باردة، لادفء فيها و لا أحضان...
أخذت كأس الحليب لأترشّفه، لونه الأبيض يذكّرني بلون الثّلج، لون الصّقيع.

لم أتردد في سكبه في الحوض بعدما رفعت الكأس عاليا ، و بقيت أحدّق فيه و هو يسيل...
تراءت لي شفاه صغيرة بحجم اللؤلؤ تبحث عن حلمة في جوع..
يسقط الكأس من يدي فجأة، ينكسّر و تنكسر معه صورة الرّضيع...
أشدّ على ثدييّ بقوّة ،

ثديان لن يدرّا أبدا حليبا ،لن تمدّ إليهما شفاه صغيرة، لن يسدّا جوع رضيع،أضرب رحمي بقبضتي، رحمٌ خواء لا فائدة منه...
يختنق الحلق بغصّة، يتهدّج الصّوت و أشهق ببكاء مرير....
أسمع فجأة،دوران مفتاح في الباب،
اليوم الخميس!... آه!... موعد قدوم نبيل من سفره، كان يفترض بي أن أعترضه في المطار..
أيعقل أن أكون قد نمت ليلة كاملة على البلاط؟
نهضت من مكاني مسرعة، مسحت أثر الدّمع من عيني،
لم أركض إليه كعادتي!
كان ينادي عليّ بشوق يشوبه شئ من الجزع...
نور، نور!
ما إن لمحني حتّى ركض نحوي و إحتضنني قائلا بلهفة:
"جزعت كثيرا عليك أتّصلت بك طوال اللّيل و لم تردّي... ظننت أنّ مكروها ما أصابك"
أخذ يتفرّس وجهي، لاحظ زرقة شفتيّ ، إنتفض يسألني عن السّبب، فلم أجبه.
حضنني من جديد في حين أنّني لم أقدر أن أنبس ببنت شفة..
أمسكني من يدي قاصدا المستشفى، رفضت في باديء الأمر لكنّه أصرّ كثيرا فلم أجد بدّا من مرافقته.
المستشفى! هذا المكان الذّي أمقته،
هذا المكان الذّي سمعت فيه الخبر اللّعين...
تثاقلت خطايا ما إن وطأت عتبة بابه....
صوت الدّكتور النّحس بدأ يعلو من جديد، يتسرّب من تحت الأبواب و النّوافذ، أسمعه في الممرّات

من بين الجدران..
عاقر ،عاقررر !
عيون الممرّضات كعيون قطط الشّوارع تترصّدني و تموء في خبث عاقر،عاقر !
تقهقه بعدها بضحكات متقطّعة شرّيرة....
أتسمّر في مكاني ،أشدّ على عيني...
مابك نور، مابك عزيزتي؟
أهرب منه، أركض نحو الباب الخارجي، أهرب من هذا الصّوت الخبيث..
يتبعني نبيل حائرا حتّى أمسك بي..
إحتضنني بقوّة...
دقّات قلبه المفزوعة عليّ أشعر بها...
أنفجر بالبكاء، أخبره أنّني لا أريد أن أدخل المستشفى فيقبل...
نعود إلى منزلنا، أتكيء في غرفة الجلوس و يجلب لي نبيل الغطاءً و يدثّرني، يشعل المدفأة، كان ينكّت كثيرا،حكى لي عن كلّ تفاصيل شغله، حتّى المملّة منها ،ثمّ أعدّ لنا كوبين من القهوة...
آخ! لو يدري كم يعذبني بلطفه.. ؟
كم مرّة ذبحني بابتسماته و بحنوّه.. ؟

أتمتم بيني وبين نفسي.
"لماذا لا تكن قاسيا كبعض الرّجال يانبيل؟ لم لاتضربني بسبب و من غير سبب لكنت الآن رحمتني من

هذا العذاب و خفّفت عنّي بعضا ممّا ألمّ بي؟ ".
جلب كوبي القهوة و دنا حذوي،همس في أذني عن حجم شوقه، عن أشياء كثيرة كانت تفرحني سابقا فصارت تقتلني الآن، تنغرس في قلبي كسكاكين حامية و تنفلت من جديد.
كنت هادئة، مطيعة إلى أبعد حدّ..
منحته كلّ ما أحتاجه، ثمّ غفا.،كطفل صغير غفا، كالطّفل الذّي حلم به تماما و لم يأت...
بقيت ألعب بشعره بأناملي و أحدّثه، حدّثته عن آلامي،عن وجعي، عن حرقتي، تأسّفت ،إليه،طلبت عفوه، حدّثته عن كلّ شئ بينما كان نائما! نائما إلى الحدّ الذّي لم يسمع ماقلت!
غفوت حذوه فنمت...
***
جلادون يضربونني بأصواتهم،ينخرون بعصيّهم رحمي،يحزّون صدري حزّا،يعلّقون ثدييّ على عمود و يضحكون، إنّي أسمع قهقهاتهم ثمّ يلقون بي في بئر عميق و صوت كصوت نبيل يصرخ من فوهتها عاقر عاقر.عاق!!!
أنهض من نومي فزعة، أرتجف، ترتعش أوصالي و تتشنّج أعصابي..
عرفت أنّني على شفا نوبة صرع جديدة..
لا ! هذه المرّة لن أستسلم للصّرع،هذه المرّة سأنجو...
أحمل علبة الأقراص التّي وصفها لي الطّبيب، أبتلعها كاملة، أسبق أقدام المرض، سأشفى مرّة واحدة، لن أشفى تدريجيّا!

أنا أمامك الآن أيّها المرض اللّعين، لا أخشاك و لن أضعف....
سأنتصر عليك...
يكفيك زعيقا أيتها الأصوات، أو إنعقي فلا أحد سيسمعك بعد الآن!!
أعود إلى نبيل، أضع رأسي على كتفه، أحضنه بعدما رصصت قبلة طويلة على صدره و نمت..
على صدره، أردت أن أنام إلى الأبد...

.....